هي بذلك، لقد درج مفكرونا بصفة عامة على اعتبار العدل سمة من سمات الإسلام[1]، وخصيصة من خصائصه، وهم يقصدون أن يوضحوا أهمية العدل ومكانته في الإسلام، والذي نريد إيضاحه أن العدل في الإسلام أكبر من أن يكون سمة من السمات أو خصيصة من الخصائص، إنه ركن ومقوم من مقومات الإسلام، وشتان بين السمة التي هي وصف للشيء وبين المفهوم أو الركن الذي هو جزء من ماهية الشيء وذاته.

إن الإسلام إذا يعطي عدالة العلاقات الاقتصادية وغيرها من العلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع، أهميتها، ويحفظ له مكانتها في تنظيمه للحياة بجعلها مقوماً من مقومات الإسلام وركناً من أركانه، وجزءاً من ماهيته، وليس غريبا بعد ذلك أن يكون الخروج على سنن العدل في العلاقات الاقتصادية، محطماً للمجتمع مهلكاً له، وأن يكون الالتزام بالعدل مفتاحاً إلى التقدم وازدهار الحياة وطيب المعيشة. أي ليس غريباً أن يكون ابتناء العلاقات الاقتصادية على العدل سنة من سنن الله تعالى، يعامل خلقه بناء على موقفهم منها ومدى استجابتهم لها كما بينا.

٤/٦: سنة الله في التغيير

من المشاهد أن أحوال المجتمعات لا تثبت على وضع دائم، بل ينالها التبدل والتحول، ويعتريها التقدم والتخلف، وينالها الازدهار، كما يحل بها

(١) الشيخ الإمام أبو زهرة، الدعوة إلى الإسلام، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٧٢ إذ يقول في ص ٨٦: «إذا كان لكل دين سمة تميزه، فسمة الإسلام العدالة».

الاضمحلال، فتقوم الدول وتسقط، وترتفع الحضارات وتهوى، وتسعد المجتمعات وتشقى، ويمر بها رغد العيش، كما تكتوي بضنك المعيشة.

بيد أن هذا التقدم والتخلف، والعلو والسقوط، ورغد العيش وضنك المعيشة، إلى آخر ما يقع من تغيرات، لا يقع اعتباطاً، ولا يحدث صدفة، وإنما يقع وفق نظام الله تعالى، وسنة له تحكم كل التقلبات التي تمر بها المجتمعات والدول والحضارات عبر العصور. وهذه السنة- كغيرها من سنن الله تعالى- مطردة عامة لا تتبدل ولا تتخلف، ولا يستثنى منها أحد، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا. فما هي السنة التي تحكم هذه التغيرات؟

إنها- إجمالي- سنة الله في التغيير، ولكن: ما هي سنة الله في التغيير ؟ تلك التي هدانا إليها، وكشف لنا عنها سبحانه في كتابه الكريم.

لقد بين لنا سبحانه، أنه قد أقام علاقة سببية بين التغيرات التي تشاهد على أرض الواقع، وبين ما يحدثه الإنسان من تغيرات في قيمه الخلقية، وقدراته النفسية، وسلوكياته الإنسانية. لقد جعل سبحانه، هذه التغيرات ترتب ما يقع في المجتمعات من أحداث، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]. فقد ربط سبحانه بين التغيرات التي يجريها على المجتمعات، وما يصيبها من شتى التحولات، من تقدم وتخلف، وعلو وسقوط، ورغد عيش، وضنك معيشة، ربط كل هذه التغيرات وأمثالها بما يحدثه الإنسان، فاعلة أو غير فاعلة، وما يقوم به من سلوكيات إيجابية أو سلبية. هكذا ربط الله تعالى التغيرات في واقع الحياة المادي، بالتغيرات في النفس الإنسانية، ربطاً لا ينفك،

فلا يحدث هذا حتى يحدث ذلك. سنة الله تعالى لا تتخلف، إذا حدثت تغيرات معينة في النفس الإنسانية، استلزمت تغيرات متناسبة معها على أرض الواقع، فتكون سنة الله أو أمر الله غير مردود عن هذا المجتمع، الذي أحدث هذه التغيرات في النفوس ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[الرعد:١١].

ومن ثم فإن الشرط الجوهري لتغيير الواقع الذي يحيط بنا، من وضع غير مرغوب فيه إلى آخر مرغوب فيه، لا يكون بالبحث عن الشروط المادية لهذا التغيير من رؤوس أموال ومصادر ثروة الإنسان، وقيمه التي يحملها، والصفات التي هو عليها.

إن هذه التغيرات التي تصيب النفس الإنسانية يمكن تشبيهها بما نسميه في البحوث العلمية «بالمتغير المستقل» وما يحيط بنا من أوضاع، أو ما نريد تحقيقه على أرض الواقع، نستطيع أن نسميه «بالمتغير التابع» فإذا توفر المتغير المستقبل تبعه في الوجود المتغير التابع لا محالة.

وعليه فإن البحوث المطلوبة لتحقيق التقدم، والخروج بالمجتمعات من وهدة التخلف، نبدأ بالبحث في الجوانب النفسية للإنسان، وكيف يمكن أن نصاغ الصياغة التي تجعله قادراً على الوفاء بمهماته في هذه الحياة. إننا إذا امتلكنا القدرة على البناء أمكننا بسهولة إقامة صروح التقدم، والتغلب على أوضاع التخلف. إن التغيرات النفسية التي تصيب النفس الإنسانية هي الحاكمة إذا، إن كل التغيرات التي يجريها الله سبحانه وتعالى في المجتمعات، تتبع هذه التغيرات التي يحدثها الإنسان بنفسه وقيمه وسلوكه.

لقد قلنا من قبل، إن سنن الله تعالى في الميدان الاجتماعي لا تجرى من فوق رأس الإنسان أو رغماً عنه. وإنما تجرى من بين يديه وباستخدام سلوكياته ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]. إن كل ما يناله الإنسان من خير أو شر في هذه الحياة، فهو تابع لسلوك قام به، وموقف اتخذه، والله يعامله طبقاً له ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]

ومن ثم فإن التقدم ـ وهو شغل المجتمعات الشاغل، وهاجسها الذي لا يغيب ـ ليس مدخله الحقيقي بناء محاور الإنتاج على أهميتها الكبيرة، وإنما مدخله الحقيقي بناء الإنسان. ذلك أن أي تغيرات تصيب النفس الإنسانية أولاً، فإنما مصدرها تغيرات تصيب النفس الإنسانية أولاً، ثم تؤثر في الحياة التي يصنعها الإنسان. فما لم يتغير الإنسان في آرائه واتجاهاته ومواقفه، وما لم يتغير محتواه النفسي، فلن يتغير شيء في محيطه الاقتصادي المادي. إن كل تغير مادي إنما يأتي نتيجة تغيرات نفسية يحدثها أفراد المجتمع، ويتلبثون بها إيجاباً أو سلباً.

وقد قررت الناحيتين الآية الكريمة التي أوردنا سابقاً وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]. فالتغيرات كلها الواقعة بالمجتمع إيجاباً أو سلبياً، إنما تحدث بسبب تغيرات نفسية يحدثها أفراد المجتمع، كما أن التغيرات السلبية فقط قد جاءت الإشارة إليها لخطورتها في آية أخرى مستقلة، برغم تضمن الآية السابقة لها، لقد جاءت الإشارة إلى التغيرات السلبية في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

فنعم الله تعالى تقر بالمجتمع ما قر الأفراد على اتباع الأسباب والسير على السنن التي أنتجت هذه الأسباب، أما انهيار المجتمع وسلب نعم الله منه، فإنه يحل بالمجتمع نتيجة تغيرات في النفوس، ينزل بها الناس عن النعمة التي استحقوا الوصول إليها باتباعهم سنن الله المؤدية إليها، فإذا غيروا وبدلوا انطبقت عليهم سنة الله تعالى في سلب النعم ورفعها.

إن قصة سبأ مثال تطبيقي واضح لهذه الحقيقة. فلقد أشار القرآن الكريم لهذه القصة إلى أن سلب النعم التي يرفل فيها المجتمع، إنما يقع بسبب ما يحدثه أفراده من تغيرات في نفوسهم، لقد أعرض أهل سبأ بعد إيمان، وطغوا بعد اعتدال، وظلموا أنفسهم بعد إحسان، فكان أن بدل الله حالهم من التقدم والازدهار إلى التخلف الاقتصادي والانهيار. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

[سبأ:١٥-١٩]

وهكذا يقرر القرآن الكريم أن التغيرات النفسية، مقدمة للتغيرات المادية التي تحل بالمجتمعات في شتى الاتجاهات. وهكذا يتعامل الله تعالى مع عباده، طبقا لسنة واضحة محددة بيّنها لهم، حتى يتمكنوا من اختيار الطريق الذين

يسلكون، والعاقبة التي إليها يصيرون. وهكذا تصبح طريق التقدم المنشود، مبينة واضحة لمن شاء أن يسلكها، ومن تنكب هذا الطريق حلت له العقوبة طبقاً لسنة الله تعالى فلا يولمن على فشل جهوده، إلا سلوكه الذي سلك، وطريقه الذي اختار، فقانون الله تعالى عام، وسنته صارمة لا تحابى أحداً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

٧/٤: موقف المسلم من السنن الإلهية

الآن وقد علمنا أن لله سنناً تخضع لها الحياة والأحياء، وسننا تخضع لها الجانب المادي من الكائنات الحية، إلى جانب الكون المادي المسخر من الله تعالى. فما الذي يطلبه الإسلام منا حيال السنن كي نصل إليها ؟ وما الذي يطلبه منا بعد اهتدائنا إليها ؟

بخصوص السؤال الأول فإن الله تعالى لم ينزل الآيات التي تشير إلى وجود السنن، ولا الآيات المتضمنة في ذاتها سنناً، كي نتعبد بتلاوتها فحسب، وإنما أشار إلى وجودها، ثم طالبنا بالبحث عنها واكتشافها، حتى يتحقق معنى تسخير الله تعالى مما في الكون من قوى للإنسان، وحتى ينتقل التسخير من ميدان القوة إلى ميدان العقل.

إن الكون مسخر للإنسان، لكن إذا كان الإنسان يجهل السنن التي يسير عليها الكون فلن يستطيع أن يستفيد من القوى المسخرة، وإنما يتمكن من ذلك عندما يصل إلى العلاقات التي توجد بين المقدمات ونتائجها، بين الأسباب ومسبباتها، بين القوانين وشروط انطباقها، عند ذلك فقط يمكن للإنسان أن يخرج التسخير من ميدان القوة إلى ميدان العقل.